١٣

الاستنزاف.. الحرب المظلومة!!

في تاريخ الحروب العربية الإسرائيلية هناك حرب بالتحديد لا أقول إنها منسية.. ولكنها مظلومة.. وهى حرب الاستنزاف وينطبق عليها بالضبط هذا الذي ما قيل عنها في الحروب الكبرى في التاريخ التى مرت عليها الأحداث ثم نسيت أو أريد نسيانها.. وأنها حروب لأبطال الذين لم يغن له أحد ولم يغن له نشيد ولم يرتفع له علم.

ولم تأخذ حرب الاستنزاف في اعتقادى حقها.. وأشير إليها وحدث بالفعل الإشارة إليها في جلسة مجلس الشعب بعد حرب أكتوبر والتى حضرها كل القادة العسكريين وكان في مارس سنة ١٩٧٤ وأراد الرئيس (السادات) أن يشرح القادة العسكريين الميدانيين لأعضاء مجلس الشعب ما حدث في الحرب..

وبالتالى وقفوا جميعاً وتحدثوا وجميعهم بدأوا حديثهم بالكلام عن حرب أكتوبر بالحديث عن حرب الاستنزاف.. ولكن هذه السجلات لم تلبث وأن طويت.. وبشكلٍ.. أو بآخر وُضِعَت على الأرفف.. ولم يتذكرها أحد رغم أن حرب الاستنزاف في اعتقادى قد تكون من أهم الحروب.. وأنها أولاً حرب بدأت فوراً بعد الضربة الأولى سنة(١٩٦٧)ثم استمرت دون انقطاع وعلى مراحل مختلفة إلى ١٩٧٠ وهذه حرب استمرت سنتين ونصف السنة كاملة وأجد أنه مر عليها ما يزيد على مليون و٢٥٠ ألف مقاتل من شباب هذا البلد.. ذهبوا للخنادق وللمواقع الخلفية.. وذهبوا في مواقع بناء الصواريخ وهذه الحرب أولاً أخذت أكثر مدة وأظنها اقتضت أكثر التضحيات.. وللعلم هذه الحرب فيها من التضحيات ومن الشهداء أكثر مما كانت في يونيو وأكثر من ما كانت في أكتوبر سنة ١٩٧٣ لأنه في هذه الحرب فقدنا ٦ آلاف شهيد في بناء مواقع الصواريخ.

ونتذكر جميعا أنه سنة (٦٧) كانت لدينا قوات في ميدان القتال ما بين ١٥٠ و١٦٠ ألف جندى.. وفي حرب أكتوبر كان لدينا في ميادين القتال في انتصار العبور العظيم يوم ٦ أكتوبر كان لدينا ٥ فرق تدخل لتقتحم وفرقتان في الاحتياطى العام غرب قناة السويس.. وكان وراءها المجموعات الموجودة للخدمات.. والعدد كله لا يمكن أن يزيد على ٣٠٠ ألف في الجبهات التى التفت إليها الناس واهتموا بها.. وعندما أنظر في تقرير الفريق فوزى والذي كان يتحدث عن عدد قوات الحرس الوطنى والتى هى مثلها مثل القوات المسلحة.. والتى كانت موجودة في الخلف تحمى المواقع الداخلية والمطارات والمنشآت الحيوية.. وأجد أنه طبقاً لتقرير الفريق فوزى شكلنا ٣٥ كتيبة ثم رفعنا هذا العدد إلى ٦٠ كتيبة موجودة لفترات خدمة كبيرة في مواقع في منتهى الصعوبة في حرب من نوع مختلف.

ويجب أن نتذكر أنه ليس فقط على الجبهة من أخذ التركيز الأكبر من ناحية النيران لكن في اتساع النيران ومع تطور حرب الاستنزاف ومع تعرض أهداف حيوية داخل البلد من أول الكبارى والجسور والطرق وتقاطعات الطرق والمطارات هناك معارك كبيرة.. وأدارها ووقف فيها وحارب فيها شباب موجودون بعيدون عن مواقع العمران وعن التجمعات الكبرى.. فلما يكون الشاب داخل كتيبته مطمئناً ولكن إذا وجد في أماكن متفرقة من أنحاء البلد وهذا الشباب يحرس مواقع حيوية ومنتظر أى

مفاجأة والعدو يركز عليه ونحن لا نعلم أين يركز بالتحديد وهو معرض لغارات ولعمليات إنزال طوال حرب الاستنزاف لأهوال لا حدود لها.. وهذه الحرب هى حرب الأبطال الذين لم يغن لهم أحد وهذا التعبير ليس من عندى.

حرب الأبطال

وهذه الحرب التى تعرض لها وعاش فيها أكبر عدد ممكن أو متصور من هذا الجيل الذي هو جيل السبعينيات.. أوما نسميه جيل أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات وهذا جيل أدى دوراً هائلاً ليس فقط في المعارك.. وطبيعى جداً أن ما يلفت النظر بالدرجة الأولى في المعارك هى المعارك التى تدور بحشد كبير.. وخلال مساحة زمنية محددة.. لتركيز الفعل.. ولفت النظر.

وفي حرب الاستنزاف كانت حرباً طويلة استمرت سنتين ونصف السنة تجرى بالقطارة.. نقطة هنا.. ونقطة هناك.. ومعركةً هنا.. وأخرى هناك.. وبالتالى مثل هذه الأنواع من الحروب لا تلفت الأنظار.. فمدتها طويلة والتركيز فيها غير محدد وليس لها صور.. والشباب الذين عاشوها كانوا متفرقين لأنها كانت حرب الانسان المصرى العادى.. ويمكن أن يكون القادة خططوا لكن الجيش كان به ضباط شباب ينتمون لنفس جيل المقاتلين.. وليس بينهم مثلاً (عبدالمنعم رياض) والذي كان موجوداً في القيادة وليس في الموقع.. وموجود (الشاذلى) [1] في موقع التخطيط وانتقل على جبهة

(١) الفريق سعد الدين الشاذلي رئيس أركان حرب القوات المسلحة المصرية في الفترة ما بين ١٦ مايو ١٩٧١ وحتى ١٣ ديسمبر ١٩٧٣ ولد في (أبريل ١٩٢٢) بقرية شبراتنا مركز بسيون في محافظة الغربية.. يوصف بأنه الرأس المدبر للهجوم المصري الناجح على خط الدفاع الإسرائيلي بارليف في حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ عاد عام ١٩٩٢ إلى مصر بعد ١٤ عاماً قضاها في المنفي بالجزائر وقبض عليه فور وصوله مطار القاهرة وأجبر على قضاء مدة الحكم عليه بالسجن دون محاكمة رغم أن القانون المصري ينص على أن الأحكام القضائية الصادرة غيابياً لابد أن تخضع لمحاكمة أخرى.. وجهت للفريق للشاذلي تهمتان الأولى هي نشر كتاب بدون موافقة مسبقة عليه.. واعترف "الشاذلي" بارتكابها. أما التهمة الثانية فهي إفشاء أسرار عسكرية في كتابه.. وأنكر الشاذلي صحة هذه التهمة الأخيرة بشدة.. بدعوى أن تلك الأسرار المزعومة كانت أسرارًا حكومية وليست أسرارًا عسكرية.. وأثناء تواجده بالسجن.. نجح فريق المحامين المدافع عنه في الحصول على حكم قضائى صادر من أعلى محكمة مدنية وينص على أن الإدانة العسكرية السابقة غير قانونية وأن الحكم العسكري الصادر ضده يعتبر مخالفاً للدستور. وأمرت المحكمة بالإفراج الفورى عنه. رغم ذلك.. لم ينفذ هذا الحكم الأخير وقضى بقية مدة عقوبته في السجن.. وخرج بعدها ليعيش بعيدًا عن أي ظهور رسمي.. ظهر لأول مرة بعد خروجه من السجن على قناة الجزيرة في برنامج شاهد على العصر في ٦ فبراير ١٩٩٩ الغريب أن الفريق الشاذلى هو الوحيد من قادة حرب أكتوبر الذي لم يتم تكريمه بأى نوع من أنواع التكريم.. وتم تجاهله في الاحتفالية التي أقامها مجلس الشعب المصري لقادة حرب أكتوبر على الرغم من الدوره

البحر الأحمر وقاد بنفسه عمليات في حرب الاستنزاف و(أحمد إسماعيل) و(محمد فوزى) إلى آخره.

والقادة والنجوم كانوا بعيدين عن هذه العمليات لكن كل هذه العلميات التى دارت دون أن يشعر أو يعترف بها أحد لم تجد من يسجلها.. وشبابها قد عاشوها وفي مواقع كثيرة جداً.. ونقابل بعض الناس ويعرفون أننا نتحدث عن موضوعات الحرب أجد كل واحد فيهم يوصينى بالتركيز على حرب الاستنزاف لكن عندما يبحث أى أحد يجد أنه من الصعوبة أن تلخص هذه الجبهة الواسعة بهذا العدد الكبير من الناس بعيداً عن النجوم وبعيداً عن الأضواء.. وهذه الحرب هى التى علمت الجنود ضرب النار.. والقتال.. وامتحنت صبر المقاتل المصرى.. وكفاءته.. وعلمته دروساً كثيرة.. وأظن أن كل القادة اعترفوا أنها الحرب التى مهدت ليوم أكتوبر.. ولكن يوم أكتوبر خطف الأنظار وأما هذه الحرب البطيئة غير المركزة المستمرة ونزيف الدم فيها لم تأخذ ولم تصنع عنصر الدراما لأن الصورة واسعة منتشرة.. وبالتالى طبيعة هذه الحرب أنها من الممكن ألا تلفت الأنظار.. وكان من الممكن ألا يقف الناس ولا المؤرخون عندها بطريقة كافية لأنه فيها خطط وتصورات ولم يكن بها خرائط والخرائط التى كانت موجودة تفصيلية صغيرة لا تعنى أحد وهنا أعتقد أن طبيعة الحرب نفسها لم تسمح لوقائعها ونتائجها أن تأخذ حقها الفعلى وأن تبدو أمام الناس.

وأعتقد أن ما حدث في أكتوبر كان لافتاً للأنظار.. وأن وهجهُ كان كبير جداً إلى درجة أنه حجب الرؤية عما ورائه وما مهد له.. وأظن أنى أريد التركيز في الأيام الستة الأولى في حرب أكتوبر لأنها لا تعوض ولا تضاهى في التاريخ العسكرى كله المصرى.. وأظن أن هذه الأيام موجودة في الوثائق العالمية للحرب وفي قصة الحرب في العالم.. أظن أن لها قيمة خاصةً ومعنى خاصاً لأنها بالفعل باهرة وخلفها ما مهد لها.. وأريد التركيز عليها لكى تؤكد شرعية وضع جديد ينتقل من ما كان في مصر قبل ٦ أكتوبر ويحاول أن يجرب خلق أوضاع جديدة تسمح بتغيرات مختلفة.. منها أن تؤكد شرعية رجل جديد وهذا منطقى ومعقول.. وثانيا أن تسمح لهذا الرجل أن يجرى ما يشاء

الكبير في إعداد القوات المسلحة المصرية.. وفي تطوير وتنقيح خطط الهجوم والعبور.. واستحداث أساليب جديدة في القتال وفي استخدام التشكيلات العسكرية المختلفة.. وفي توجيهاته التي تربى عليها قادة وجنود القوات المسلحة المصرية.

من التغيرات سواء في سياسة مصر الداخلية والخارجية ولديه مؤهل هذا الذي حدث في أكتوبر.

وبالتالى كان هناك جزء في حرب الاستنزاف كان من الطبيعى أن يتم نسيانه.. ولكن كان هناك جزء مقصود للتركيز على حرب أكتوبر لكى يؤكد وجود شرعية وقيادة جديدة.. ولكى يمهد لتحولات كبيرة جداً وواسعة جداً سواء في السياسة المصرية الداخلية والخارجية..

وأصبحت حرب أكتوبر محركاً لإجراء تعديلات تصل للانقلاب في السياسة المصرية.. وهذا لا يختلف عليه في اعتقادى أحدٌ.. لكن التركيز على أكتوبر وبهذا الشكل كان مقصوداً لأن اليوم في حد ذاته كان مبهراً.. وأنا أتصور أن استغلاله كان لابد أن يتم لصالح الذين قاتلوا.. وليس لصالح المقاتلين.. ولكن أيضاً لصالح المبررات في الداخل.

من مقاتلين إلى مقاولين

هناك حرف واحد تغير في الكلمة من المقاتلين إلى المقاولين.. فإذا بنتائج حرب أكتوبر تقدم للساحة شيئاً آخر..

(جمال عبد الناصر) مشروعٌ مصري

المفكر المصرى المقتدر الدكتور (جلال أمين[1]) له وصف أو نظرية في هذا الموضوع.. وأنا أعتقد أن جزءاً كبيراً منها صائب.. يقول (جلال أمين) أن هناك مشروعاً يسمى (جمال عبد الناصر) وهو المشروع القومى المصرى.

وظهر مشروع رُمِزَ له بـ (عثمان أحمد عثمان[2]) وهو كمقاول قد يكون على أعلى مستويات الكفاءة.. وبنى أشياء كثيرة.. لكنه أصبح رمزاً في ذلك الوقت بعد تعيينه

---

(١) جلال الدين أحمد أمين.. وهوعالم اقتصاد أكاديمي.. وكاتب مصري.. من أشهر كتبه كتاب "ماذا حدث للمصريين" الذي يشرح التغير الاجتماعي والثقافي في حياة المصريين خلال الفترة من ١٩٤٥ إلى ١٩٩٥ أي خلال نصف قرن من الزمان.. ويعزي هذا التغير الملحوظ إلى ظاهرة الحراك الاجتماعي.. وجلال أمين هو ابن المفكر الإسلامي الكبير الراحل الأستاذ أحمد أمين.

(٢) عثمان أحمد عثمان (١٩١٧-١٩٩٩) مهندس وسياسي مصري.. ساهم في بناء السد العالي.. وأسس شركة المقاولون العرب.. أكبر شركة مقاولات عربية في تاريخ الوطن العربي.. أصبح فيما بعد صهراً للرئيس أنور السادات.. ووزير إسكان في عهده.. طوال فترة رئاسة السادات كانت مجلة فوربس الأمريكية تورد اسمه ضمن أكبر ٤٠٠ ثري في العالم.. توفي في ١ مايو ١٩٩٩.

obeikandl.com

وزيراً للتعمير.. وكان ودوره أكثر من أن يمثله رجلاً واحداً سواء في قيمته.. أو حقيقته.. لكن (جلال أمين) اعتبره رمزاً لتحول معين.. وأنا أوافقه على هذا لأنه بالفعل نسيت حرب الاستنزاف وحرب أكتوبر التى جرى فيها التركيز بشكل معين على يوم معين لإحداث تغييرات كبيرة جداً وقعت على أساسها.

حتى على أساس الشرعية أو السياسة أو تنفيذ توجهات اجتماعية معينة كان هناك عامل آخر يساعد في التركيز على أكتوبر.. ونسيان حرب الاستنزاف.. أريد منها التغطية على ما جرى في النصف الثانى من حرب أكتوبر في الإدارة السياسية.. وأنا أتمنى أن يظهر في مصر جيل جديد من المؤرخين مثل الذي ظهر في إسرائيل يحاول التقصى عن قصة هذا التحول الذي جرى.. لأنه في هذا الوقت ما حدث في حرب أكتوبر.. وما تلاه من الأسبوع الأول جرى استغلاله لإجراء تحولات.. وهناك أشياء ساعدت على نسيان حرب الاستنزاف والتركيز على أكتوبر.. حيث ربط بين ٥ يونيو سنة(١٩٦٧)و٦ أكتوبر سنة ١٩٧٣ وكأن المساحة بينهما كانت فراغاً.

فيوم ٥ يونيو يمثل صدمة وضربة بشعة..

ويوم ٦ أكتوبر يمثل انتصاراً.. ومدعاةً للفخر..

وكأن لا شيء بين الإثنين.. وكأن معجزة وقعت بينهم.. وبالتالى تختلف الصورة.. وكان هذا في اعتقادى قصداً مقصوداً.. وأتمنى أن يأتى جيلٌ جديد من المؤرخين يركز على هذه النقطة.. وكيف حدث الانتقال؟

وهذه اللحظة الباهرة بالأضواء من المقاتلين إلى المقاولين.. كيف تغيرت من التاء في المقاتلين إلى الواو في المقاولين.. مع العلم أنه هناك من المقاولين من يستحق الاحترام والتقدير.

وأريد القول أنه من ضمن نسيان حرب الاستزاف أنه حدث انتقال وربط مباشر بين يومٍ يدعو إلى الأسى.. وآخر يدعو للفرح دون وجود مساحة بين الاثنين.. وأنا أظن أنها نقلة غربية.. وصاحب على نسيانها أيضاً الطبيعة البشرية فمثلاً عندما يكون هناك بناء هائل.. يقف الناس أمامه مبهورين ولا يتذكر أحد ما جرى قبل ذلك ويبدو كما لو أنه ظهر فجأة.

وهذا ما حدث مع يوم ٦ أكتوبر من كونه يوماً خالداً في تاريخ الوطن والأمة وعلامة في تاريخ العالم.. ولكن ما قبله هو الذي مهد له.. وهو الذي صنعه.

الإعلام العربى في هذه كان يسيطر عليه الإعلام المصرى.. واللبنانى.. لكن ظهر إعلام من نوع آخر يموله النفط.. وكان من أشرف على هذا هو السيد كمال أدهم مدير المخابرات السعودية آنذاك؟؟

وأتذكر أنه جاءنى في مكتبى بعد حرب أكتوبر قبل أن أترك الأهرام.. ومعه صفحات بروفات لجرونال سوف يظهر في لندن وسألنى رأيى فيه.. وقال لى أنه يتعلم منا مهنة الإعلام.. ولكن جاء هذا الإعلام في فترة كان الواضح فيها وجود تحولات في مصر.. ففي هذه الفترة كانت كمية الأموال التى وُجهت لإنتاج أفلام.. وإصدار كتب.. وجرائد.. ومجلات وإنشاء محطات إذاعة وتليفزيون مسألة ملفتة للنظر.. لأنه في هذا الانتقال الذي ظهر في مصر كان له أصداء في العالم العربى.. لأنه في اللحظة التى ظهرت فيها فوائد النفط بدأ هذا السلاح السحري يرسم سياسات أخرى مختلفة عن كل ما سبقه.. لأنه لديه مصالحه.. ولديه رؤاه في المستقبل.. ولديه رؤى متوافقة أكثر مع المقاولين أكثر من المقاتلين.. وهذه أيضاً طبيعة الأشياء.. ولكن ما حدث ودون أن يدرى أحد حدث تحول في مصر وفي الإقليم ساعد عليه أشياء كثيرة في العالم.. منها أنها لحظة الظهور الأمريكى.. أو الإمبراطورية الأمريكية في رئاسة نيكسون والذي كان موجوداً في حرب أكتوبر.. وهنا أعتقد أن حرب الاستنزاف.. ضاع منها الكثير.. وتفاصيلها بهتت.. ووقائعها وضعت في السجلات والأرفف.. وأنا أعتقد أن هذه الحرب يجب أن نقف أمامها طويلاً وهذا ما سأحاول أن أفعله فيما بعد.

وقد تحدثت عن حجم الشباب الموجودين في معارك الاستنزاف.. وعن طول المعارك.. وحرب المعارك.. وقلت أن حرب الاستنزاف بدأت في أول يوم من حرب يونيو.. وكانت بمثابة رد فعل طبيعي.. وتمثلت في حرب المدافع ومعارك المدافع على شاطئ القناة.. وبعدها عملية إغراق إيلات وعملية إغراق داكار.

بعد ذلك بدت حرب استنزاف حقيقية لها أهدافها التى تمثلت في ضرورة ألا يستقر الإسرائيليون إطلاقاً.. وألا يشعر العالم بانتهاء الحرب.. وألا يشعر العرب والشعب المصرى أن الحرب انتهت.. وأن الاحتلال الموجود في سيناء لا يستطيع البقاء.. وبالتالى بدأ يكون لدينا تخطيط حقيقى.

وهنا جاءت رحلة (جمال عبد الناصر) إلى موسكو في طلب سلاح أكثر وفي ترتيب مرحلة أخرى مختلفة.. وجاءت مهمة (عبدالمنعم رياض)مع القادة

السوفييت العسكريين مثل مارشال زاخروف.. وكل هيئة أركان الحرب.. وخصوصاً في الطيران والدفاع الجوى.. وبدأت وقتها أشياء كثيرة.. وحرب منظمة.. وبدأت تعمل على نقلة نوعية لم يتنبه إليها أحد.

عودة القوة المصرية

وهنا سوف أعرض تقريراً واحداً لإدارة المخابرات للخارجية الأمريكية.. ورئيسها آنذاك توماس يوز والذي كتب تقريراً لديس رازك وزير الخارجية والتقرير يحمل رقم ٨٥١ مذكرة مخابرات بتاريخ ١ نوفمبر سنة ١٩٦٨ إلى الوزير.. يقول فيها أن الجمهورية العربية المتحدة تستعرض عضلاتها على خطوط السويس وكان التقرير بعنوان القوة المصرية تعود.

وجاء في التقرير أنه تشير الاشتبكات الأخيرة بين القوات المتحدة وإسرائيل على طول جبهة قناة السويس إلى شعور متزايد بالثقة في القاهرة بشأن القدرات العسكرية.. ففي ٤ مناسبات متوالية خلال الشهرين الأخيرين وهى أيام ٢٦ أغسطس ٨ سبتمبر.. و٢٣ و٢٦ أكتوبر يبدو أن القوات المصرية استطاعت أن تنال من القوات الإسرائيلية.. وهنا القوات المصرية تحت ستار مدفعية كثيفة جداً اشتبكت في عمليات على نطاق لفت نظر المخابرات الأمريكية في وزارة الخارجية إلى أن هناك تغييراً نوعياً في القوات.

وقال في التقرير أن الاشتباك الأخير بالتحديد قد أكد الأسلوب التكتيكى الذي تتبعه سياسة الجمهورية المتحدة منذ أواخر أغسطس وأوائل سبتمبر.. وبعد عودة (عبدالمنعم رياض) من موسكو وبعد صفقة سلاح سمحت للقيادة المصرية والعسكرية أن تطلق المخزون أو الاحتياطى أو جزءاً منه.. وتدخل في المعركة وهى تعرف أن لها إمداداً قادماً.. ويحكى عن التكتيك المصرى أن الحشد المركز للقوات المدفعية بما يغطى دخولاً عميقاً لقواتهم داخل الخطوط الإسرائيلية بواسطة قوات كوماندوز كما أن الاشتباك الجوى بين الطائرات المصرية والإسرائيلية ٢٣ أكتوبر يظهر تفوقاً له معنى في كفاءة الطيارين المصريين.. أو بعضهم على الأقل.. ويبدو أن الاستراتيجية تركز على قوات عسكرية أقوى وثقة تتزايد في كفاءة التكتيكات المصرية الجديدة المزودة بإمكانات متعددة.. ويقول التقرير أن هذا فيه عنصر خداع نفسى وأنه ليس من الممكن أن يكون هؤلاء الناس مصريين.. وأنهم خائفون من سلسلة

الانتصارات التى حققتها القوات المصرية على القوات الإسرائيلية.. وقد تعزز ثقة الجمهورية العربية المتحدة نفسها وجسارتها على الفعل والخطر الحقيقى في ذلك الوقت أن يؤدى هذا الشعور بالزهو إلى ثقة متزايدة تؤدى بدورها إلى خطأ في الحسابات قد يغرى قادة الجمهورية العربية المتحدة.. وأن يجربوا تحويل نجاحتهم المحدودة الحالية إلى انتصار عسكرى ضد إسرائيل.. ويتحدث عن الطريقة التى ظهرت فيها غارات.. وقد قلت من قبل أن القادة السوفييت خافوا من الهجوم.. ولم يكن أحد فينا يفكر في الهجوم في ذلك الوقت.. ولكن التفكير في ذلك الوقت كان في إقلاق وإزعاج.. ونزيف دم لا تحتمله إسرائيل في معارك مستمرة تشعل العرب والعالم والشعب المصرى وأن المعركة مستمرة وهذا الاحتلال لا يمكن أن يبقى لأنه ضد الطبيعة وضد التاريخ.

وتابع التقرير أنهم يريدون إرغام إسرائيل على وضع قوات كبيرة وأشعروا الجميع بقوة الجمهورية المتحدة.

وأنا أرى في هذا التقرير أنه يتحدث بعد سنة واحدة من بداية حرب الاستنزاف والتى أحدثت تغييراً نوعياً أحس به الإسرائيليون وكل المراقبين في العالم ولفت النظر إلى إعداد شيء آخر.

❖❖❖

obeikandl.com